منزلة العلاقات التخاطبية في كتاب الوصايا لابن عربي مقاربة تداولية.

د. سعيد نواصر
جامعة أدرار
قسم اللغة والأدب العربي

بحكم أنّ الخطاب التداولي في تحديه العام القائم على مبدأ الوظيفة، يقوم أساسا على بعد تواصلي وإبلاغي من نوع خاص؛ راح فلك المقال ينطلق من خطاب صوفي له من المؤهلات المعرفية والفكرية والفلسفية واللغوية ما يجعله يحقق نوعا من التلازم مع ما تقتضيه طبيعة التصور التداولي؛ فاختار صاحب المقال شخصية ابن عربي ممثلة في أحد مصنفاته وهو كتاب الوصايا لما اشتمل من أبعاد صوفية روحانية تتماشى إلى حد كبير مع كثير من الأبعاد التي نادت به التداولية في بعض نظرياتها؛الأمر الذي جعلنا نسقط عدة إجراءات تداولية على بعض النصوص التي استقيناها من كتاب الوصايا لابن عربي، متخذين في ذلك مقاربة تداولية لربّما استطعنا أن نجد ما يبرر هذا النوع من التقاطع بين الخطاب التداولي المعاصر والخطاب الصوفي.

الكلمات المفتاحية: الخطاب التداولي، الخطاب الصوفي، إبن عربي، كتاب الوصايا. مقاربة تداولية.

Abstract:

Since pragmatics, in its general challenges, is based on the idea of functionality, and special kind of communicative and informational aspects, this article focuses on a Sufi discourse that has cognitive, intellectual, philosophical and linguistics elements that makes it compatible with the nature of pragmatics. To elaborate on this theory, the researcher chooses Ibn Arabi's "The

Commandments," which include the ideas and beliefs of Sufism, which are mainly in line with many of the Sufi beliefs advocated by the Pragmatics theories. This led us to apply several pragmatics procedures on some of the texts that we derived from the Book of Commandments and doing comparative pragmatics taking so, we come up with justification for this kind of intersection between contemporary discourse and Sufi discourse.

Key words: Pragmatics, sufi Discourse, ibn arbi, Pragmatics the ories, books of commandments, cont emporary discourse

مقدمة:

قد يظن ظان أنّ الحديث عن العلاقات التخاطبية مقتصر فقط على جهة ما له علاقة بالنظريات الخطابية واللسانية واللغوية، على خلاف ما هو موجود في سياق الخطاب الصوفي الذي يمتاز عن غيره من الخطاب بذلكم التصور الروحاني الذي يتجاوز حدود الخطاب أو النص أو البنية التي يرتكز عليها الخطاب تداوليا.

نقول إنّ مثل هذا الزعم غير مبرّر من جهة، ولا يقوله باحث في مجال تداوليات الخطاب من جهة أخرى؛ ذلك أنّ الخطاب الصوفي بعيدا عما ارتكز عليه من حقائق وجودية كونية لازمت الروح والفطرة والعقل والقلب وفق تلكم المدونة المفاهيمية والمصطلحية؛ فإنّه في الوقت نفسه استطاع أن يعطي لهذا الخطاب ميزة تركيبية تتماشى مع مستلزمات البنية شكلا ومضمونا ومقصدا؛ الشيء الذي أهّل الدارسين والمشتغلين في مجال الخطاب الصوفي أن يدركوا عدة إجراءات مفاهيمية ومصطلحية قائمة في التصور التداولي عن طريق مبدأ العلاقات التخاطبية.

من هذا المنطلق فإنّ أغلى سمة امتاز بها الخطاب الصوفي عن غيره من الخطابات الأخرى، هو تلكم الشمولية المطلقة، وهذا نتيجة تعامله مع الظواهر على

اختلاف أشكالها عن طريق اللغة الباطنية الرامزة التي لها من المميزات المفاهيمية والمصطلحية والمنهجية والإجرائية ما يجعلها تحقق نوعا من الانسجام والترابط مع العلاقات التخاطبية؛ الأمر الذي يجعل من هذه اللغة الباطنية تكون في تلازم تعالقي مع الخطاب الصوفي من جهة، ومع الأبعاد التداولية من جهة أخرى. لكن لسائل أن يسأل هل يمكن للخطاب الصوفي الروحاني أن ينقاد إلى مستلزمات العلاقات التخاطبية وفق التصور التداولي؟ وهل يمكن الوصول إلى حقيقة العرفان الصوفي من خلال علائقية الخطاب الصوفي بما تطرحه الدراسات التداولية في التعامل مع النصوص والخطابات الصوفية ذات الدلالات الباطنية الروحانية التي تعتمد الإشارة والرمز؟.

الخطاب الصوفي؛ خطاب شمولي استغراقي:

جاء على لسان حال ابن منظور في تحديده للخطاب ما يلي" الخطاب لغة: خطب، الخطب الشأن أو الأمر، صغُر أو عظُم، وقيل: هو سبب الأمر، يقال: ما خطبُك؟ أي ما أمرك؟. وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال، ومنه قولهم: جلّ الخطب أي عظُم الأمر والشأن. وفي حديث عمر: وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان؛ فقال: الخطب يسير. وفي التنزيل{قال فما خطبكم أيّها المرسلون} وجمعه خطوب؛ فأما قول الأخطل:

كلمع أيدي متّاكيل مُسلَّبة* ينذُبن ضرسَ بنات الدّهر والخُطُب"**

إنّما أراد الخطوب؛ فحذفَ تخفيفا، وقد يكون من باب رهنٍ ورُهن([1]).

ولم يخرج صاحب القاموس المحيط عمّا أشار إليه ابن منظور في شأن مفهوم الخطاب القائم على دلالة الشأن والأمر العظيم على اختلاف السياقات التي يرد فيها لفظ الخطاب. يقول في هذا المقام ما بيانه" الخطب : الشأن، والأمر صغُر أو عظُم،

[1] – ابن منظور: لسان العرب. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1965. مادة خطب.

جمعه خطوب، وخطَب الخاطِب على المنبر خُطبة، بالفتح، وخُطبة بالضم، وذلك الكلام: خُطبة أيضا، أو هي الكلام المنثور المسجّع ونحوه. ورجل خطيب: حسَن الخطبة"([1]).

أما اصطلاحا فلعل أجمل تحديد للخطاب من الوجهة الاصطلاحية؛ هو ذلكم الملفوظ الذي يندرج أصلا تحت السياقات الاجتماعية؛ على أساس أنّه"...يضطلع بمهمة توصيل رسالة، ومن ثم فهو مغمور في الأيديولوجيا، ومبالغ في خرق النظام بحثا عن المرجع"([2]). إذا هو الخطاب الذي يشتمل في الأصل على شمولية تقترب إلى حد كبير مع المرجعيات التي يقوم في ضوئها أيّ تصور معرفي ومنهجي وإجرائي لأي خطاب مهما كان نوعه أو جنسه.

وأما **الخطاب الصوفي** فنجده يرقى بلغته الاطلاقية إلى ذوقية عرفانية بعد تجربة يخوضها الصوفي مع عالم الروح ليجسدها في إطار مفاهيمي وعاؤه اللغة الإشارية الرامزة التي تعتمد على رموز القوم ومصطلحاتهم، وذلك لتطويع مفاهيم الدلالة اللغوية خدمة للمدونة الصوفية، وتلكم الخطابات التي نجدها مبثوثة في الأدب الصوفي؛ نثراً وشعراً.

الخطاب من منظور التصور الحداثي:

لعل الناظر إلى مفهوم الخطاب من منظور الفكر الغربي المعاصر يدرك أنّه قد احتل الصدارة في كثير من السياقات المعرفية التي تعامل معها التصور الغربي على اختلاف المجالات المعرفية من لسانية وفلسفية واجتماعية ونفسية وغيرها مما أهّله المقام في ما بعد أن تنفرد هذه الرؤية الغربية بعدة خصائص معرفية ومنهجية وإجرائية في تعاملها مع واقع الخطاب؛ ذلك أنّ غالبية الاستخدامات المعاصرة-على حد تعبير

[1] -الفيرزو أبادي: القاموس المحيط. مادة خطب.
[2] - حسين واد ،في مناهج الدراسة الأدبية، دار سراس للنشر، تونس 1985، ص 37.

جابر عصفور- لمفهوم الخطاب؛ بوصفها مصطلحا له أهميته البالغة ، راحت تستعمل أو تستخدم في الغالب الأعم في تلكم"... الكلمات الاصطلاحية التي هي أقرب إلى الترجمة ، والتي تشير حقولها الدلالية إلى معان وافدة، ليست من قبيل الانبثاق الذاتي في الثقافة العربية، فما نقصد بالكلمة المصطلح-الخطاب- هو نوع من الترجمة أو التعريب لمصطلح Discourse، في الإنجليزية، ونظيره Discours، في الفرنسية، أو Diskurs في الألمانية..."([1]).

ويضيف جابر عصفور أمرا آخر له من الأهمية بمكان في قضية الاشتقاق القائم على مستوى الخطاب، بأنّه ولّد فيما بعد عدة مرادفات أجنبية ساهمت في تشكيل صور مفاهيمية وحقائق اصطلاحية أساسها الأول هو واقع الخطاب بأسيقته الفكرية والفلسفية والدينية والاجتماعية والنفسية التي لازمته من حيث النشأة والتطور والاستقلال. بعبارة أدق إنّ غالبية المرادفات الأجنبية الشائعة والمتداولة لمصطلح الخطاب كانت مأخوذة في الغالب"... من أصل لاتيني، هو الاسم(Discursus)المشتق بدوره من الفعل(Discursere)الذي يعني الجري هنا وهناك أو الجري ذهابا وإيابا، وهو فعل يتضمن معنى التدافع الذي يقترن بالتلفظ العفوي، وإرسال الكلام والمحادثة الحرة والارتجال، وغير ذلك من الدلالات التي أفضت في اللغات الأوربية الحديثة إلى معاني العرض والسّرد..."([2]).

على هذا الاعتبار القائم في محدودية الخطاب وفق تنوعه السياقي من جهة الاستعمال، راحت تظهر ملامحه الدلالية عبر ما أنجزه الفكر الغربي اللسانياتي ابتداء من سوسير الذي حاول أن يرسي معالمه على حسب ضابط النسقية التي آمن بها منذ زمن طويل؛ الشيء الذي خلّف فيما بعد عدة رؤى مفاهيمية وإجرائية تتعلق بعالم

[1] - جابر عصفور: آفاق العصر، ط1، دار الهدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق، 1997، ص:97.
[2] - المرجع نفسه. ص ص:47-48.

الخطاب، ممكن أن نشير إلى أهم منها تبعا للكتابات النقدية المتعلقة بالرواية والسرد وهلم جرا، ثم بعدها نعقب عليها وفق ما تقتضيه طبيعة الإشكال.

1-الخطاب مرادف للكلام أو الإنجاز الفعلي لواقع اللغة وهو يختلف باختلاف الجهات التي يأخذها الكلام عن طريق ما يسمى بالمرسلات اللغوية. بعبارة أدق "اللغة في طور العمل أو اللسان الذي تنجزه، ذات معينة كما أنّه يتكون من متتالية تشكل مرسلة لها بداية ونهاية"([1]).

2-الخطاب سلسلة من الجمل على حد تعبير مانقونو([2])،وهذه السلسلة هي في الأصل سلسلة لا تبتعد كثيرا عما هو قائم في التتابع الذي يلتقي فيه النص الجملي مع واقع الخطاب، ولعل من أهم الرواد الذين تنبهوا إلى هذا النوع من التتابع الجملي الذي يسير وفق تسلسل محكم داخل عالم البنى التركيبية هو الباحث اللساني الأمريكي هاريس([3]).

3-الخطاب هو ذلكم الوسيط اللساني الملازم لمجموعة من الأحداث والظواهر والوقائع التي تسير وفق ما أطلق عليها المنظر اللساني جينيت بمصطلح الحكاية التي يختلف استعمالها من بنية نصية إلى أخرى تبعا لما يمليه مصطلح الحكاية على واقع الأحداث([4]).

4- الخطاب ملازم لفعل التلفظ مع ضرورة وجود المتلقي المستمع على حسب ما أشار إليه بنفنيست (Benveniste)؛ وعليه نجده يحدّد الخطاب وفق هذين

[1] – سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، 1997، ص:21.

[2] – ينظر بالتفصيل دومينيد مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. ترجمة: محمد يحياتن. ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص:35.

[3] – لمن أراد التفصيل الممل في هذا الشأن فليعد إلى كتاب محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة. مركز النشر الجامعي، تونس، 2004.

[4] – جيرار جينيت: خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم وآخرين. ط3، منشورات الاختلاف، 2003م. ص: 38 وما بعدها.

الشرطين؛ فهو"... كل تلفظ يفترض متحدثا ومستمعا، تكون للطرف الأول نية التأثير في الطرف الثاني بشكل من الأشكال"([1]).

هي تحديدات لواقع الخطاب التي أخذت تتنوع وتتجدد على حسب الجهات التي كان يتعامل معها أهل الاختصاص في مجال تحليل الخطاب،التي أفرزت لنا عدة حقائق معرفية ومنهجية لازمت الخطاب ليس فقط كمفهوم أو مصطلح، بل كحقيقة لها القدرة في تناول المعرفة من بابها الواسع، وهذا ما حدا بالناقد جابر عصفور أن يساهم هو الآخر في هذا النوع من الشمولية التي تستغرق الخطاب من كل مكان؛ فالخطاب من منظور جابر"... ليس تجمعا بسيطا أو مفردا من الكلمات- أو الكلام بالمعنى الذي قصد إليه دي سوسير- ولا ينحصر معناه في قواعد ذات قوة ضابطة للنسق اللغوي فحسب، إنّه ينطوي على العلاقة البينية التي تصل بين الذوات، ويكشف عن المجال المعرفي الذي ينتج وعي الأفراد بعالمهم، ويوزع عليهم المعرفة المبنية في منطوقات خطابية سابقة التجهيز"([2]).

واللافت للانتباه أنّ هذا التصور لمفهوم الخطاب لم يبق على هذه الشاكلة، بل تغيرت مساراته المفاهيمية والإجرائية لتغير عالم المعرفة التي جعلت من الخطاب يأخذ من الشمولية الاستغراقية ما يجعله يتعامل مع الظواهر والقضايا بشكل واسع وأشمل. ولعل من بين الحقول المعرفية التي تجسّدت فيها شمولية الخطاب وفق نطاق أوسع هو حقل السيميائيات؛ هذا الحقل الذي تعامل مع الخطاب وفق رؤية معرفية ومنهجية وإجرائية تجاوزت حدود البنية النسقية لتصل إلى ما يمكن أن نطلق عليه بالما وراء البنية أو الخطاب، وهي الماورائية التي جعلت الخطاب الصوفي فيما بعد يجد

[1] -محمد الباردي: إنشائية الخطاب. المرجع السابق. ص:1.
[2] - جابر عصفور: آفاق العصر. المرجع السابق. ص:49.

متنفّسه في ما يمكن أن نسميه بالعلاماتية التخاطبية التي تتماشى إلى حد بعيد مع مقتضيات السياق على حسب القرائن بضربيها: اللفظي والمعنوي.

ونحن إذ نشير إلى هذا الحقل السيميائي الذي اهتم بواقع الخطاب من منظور علاماتي، لأنّنا نعلم في حدود اطلاعنا في مجال الخطاب الصوفي أنّه يمثل تقاطعا معرفيا وإجرائيا مع شمولية التصور الصوفي لعالم الخطاب. وعليه وجدنا المشتغلين في مجال حقل السيميائيات وبالضبط ما سمّي لديهم بالسيميائيات التواصلية([1]) يتعاملون مع الخطاب من منظور السياق العلاماتي وفق مكونات وعلاقات تخاطبية لا تخرج عن أربع جهات أساسية تجعل الخطاب يتنفس تنفسا سياقيا ومقاميا على حسب شمولية الاستعمال بمعناه الواسع، وهي([2]):

أ- حقل الخطاب بمعنى تلكم العلاقة القائمة بين النص والموضوع.

ب- نوع الخطاب أي تلكم العلاقة بين المخاطب والمتلقي. اللغة المكتوبة والمنطوقة.

ت- فحوى الخطاب أي تلكم العلاقة بين المخاطب والمتلقي في مقامات التفاعل الاجتماعي.

ث- البحث النقدي وهي العلاقة التي تتعامل مع عالم الأشياء وفق مرجعية معرفية ومنهجية همّها الوحيد هو تبيان أهم ما تقوم عليه الظواهر حتى يتسنى لفعل النقد أن يقوم بدوره.

مثل هذا التصور في تحديد الخطاب جعل من المشتغلين في مجال الدرس البلاغي يحددونه على أنّه"... مجموعة من الجمل منطوقة كانت أو مكتوبة، في حالة اشتغال أفقي-أي نمط أو تركيب- على موضوع محدّد. ويسعى التلفظ به إلى التأثير في المتلقي

[1] - ينظر خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات. ط1، بيت الحكمة. 2009. ص ص:18-21.

[2] - ينظر بالتفصيل جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي. دار توبقال. المغرب، 1997. ص ص:90-91.

بواسطة فرضيات ورؤى وأحاسيس، مما يتطلب مبدئيا ديمومة في إنتاجه وتلقيه وتماسكا داخليا وتدليلا مقنعا وصورا تعبيرية ولغة واضحة"([1]). وهذا تصور لربّما يختلط فيه مفهوم الخطاب مع مفهوم النص؛ بحكم أنّ هناك تداخلا بين مفهوم النص مع مفهوم الأثر الأدبي على حد تعبير رولان بارث(Barth)([2]).

والملاحظ في شأن تعدد واقع الخطاب أنّ له وجهان إذا ما أردنا أن نتعامل معه وفق رؤية حداثية تتماشى مع الطرح اللغوي العربي القديم: أحدهما حواري يعطي للطرف الآخر المتلقي المستمع حقّه من حيث الوجود والكينونة، وهذه ميزة نجدها مجسّدة بوضوح في البلاغة القديمة على اختلاف أصحابها. والثانية نفسية أحادية لا تعرف إلا صاحب الخطاب نفسه وحسب، وهذا ما جعل من الناقد غربي باختين(Bakhtine) يحدّد معناه على أنّه"... لا يعرف الخطاب سوى نفسه- سياقه- ، وسوى موضوعه وتعبيره المباشر، ولغته الواحدة والوحيدة بالنسبة لذلك الفكر كل خطاب آخر موضوع خارج سياقه الخاص، ما هو إلا كلام محايد لا يرجع لأي أحد، فهو مجرّد إمكان بالقوة"([3]).

ما يمكن قوله فيما حاولنا أن نشير إليه بشكل مقتضب في شأن مفهوم الخطاب، أنّ غالبية المفاهيم والمصطلحات التي تناولها المشتغلون في مجال تحليل الخطاب قد عملت على تطوير هذا الحقل المعرفي المتميز،ووثقت تلكم الصلة المعرفية والإجرائية بين تحليل الخطاب والحقول المعرفية الأخرى من مثل: اللسانيات وعلم النفس اللغوي والاجتماعي والسيميائيات وفلسفة اللغة وهلم جرا؛ فأصبح حينها

[1] – رشيد بنحدو: النص الأدبي من الإنتاج إلى التلقي. أطروحة مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس، تحت إشراف حسن المنيعي، 1991، ص:249 وما بعدها.

[2] – ينظر بالتفصيل المملّ رولان بارث : درس في السيميولوجيا. ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي. ط2، دار توبقال، 1986م. ص:59 وما بعدها.

[3] – ميخائيل باختين: الخطاب الروائي. ترجمة: محمد برادة. ط1، دار الأمان، 1984. ص:43.

الخطاب تمظهرا معرفيا وفلسفيا وفكريا ولغويا كبيرا تحدوه الشمولية الاستغراقية من كل مكان.

غير أنّه من باب أولى أن ننبه إلى قضية مهمة تتعلق فيما أشرنا إليه قبل قليل، والمتمثلة في كون أنّ الخطاب باتصافه بهذه الشمولية الاستغراقية على اختلاف السياقات والمقامات، جعلنا ننتبه إلى أنّ ما يبرر هذا النوع من العطاء هو ما ألفينا الخطاب الصوفي يحتوي على هذه الشمولية الاستغراقية في تعامله لعالم الظواهر التي كان يغلب عليها الطابع الروحاني على حسب ما يقتضيه حقل التصوف تصورا ومنهجا ومقصدا.

لكن الذي يهمنا نحن في هذه الشمولية في شأن الخطاب، أنّ الصوفي وجد في عالم شمولية الخطاب ما يعبّر عما هو قائم في الروح والقلب والعقل وفق لغة شارحة(Meta-langage) استطاع الخطاب الصوفي أن يجعل من هذه اللغة الشارحة أو الواصفة تنقاد لعالم الروح أو الباطن الذي يعد لدى الصوفي الحجر الأساس في تعامله مع عالم المعرفة من بابها الواسع.

لكن نقول للذين راحوا في كثير من السياقات يترجمون مصطلح (Meta-langage) على أنّه اللغة الواصفة أو الشارحة أو ما وراء اللغة؛ هل توقفتم عند هذا النوع من الإطلاق في تلازمه مع السياق المعرفي الصوفي الذي له مدونته المفاهيمية والمصطلحية والإجرائية الخاصة به؛ سواء من جهة التصور أو المنهج أو الطريقة؟ لعل إطلاق الما ورائية في حق المصطلح هي التي جعلت الخطاب الصوفي يجد ضالته في سياق الوصف والتحليل والاستنباط وفق ما تقتضيه المدونة المفاهيمية/المصطلحية القائمة في الخطاب الصوفي لا غير؛ الأمر الذي جعلنا نسم هذا الخطاب بتلكم الاستغراقية الكائنة في الخطاب في حد ذاته، وفي تلكم العلاقات التخاطبية التي يحويها سواء بين الصوفي وذاتيته على جهة الاستقلال، أو بينه وبين

المتلقي الصوفي على جهة مبدأ الحوار الذي يتماشى مع مقتضيات التصور التداولي وهو ما سنبينه بعد قليل من خلال بعض النصوص.

هي محطة لا مندوحة من الإشارة إليها في شأن شمولية الخطاب الصوفي قبل الدخول في تلكم الاستعمالات الصوفية لواقع الخطاب الملازم للأسيقة التي راحت تتوزع على حسب ما تقتضيه طبيعة العلاقات التخاطبية وفق بعدها التداولي. وهنا نقول ما ميزة العلاقات التخاطبية من منظور التصور التداولي؟ وهل مثل هذه الحقائق القائمة في مبدأ العلاقات التخاطبية التداولية لها ما يبررها في واقع الخطاب الصوفي؛ تصورا ومنهجا ووظيفة؟.

العلاقات التخاطبية:

يطلق التخاطب أو العلاقات التخاطبية من منظور التداوليين على ذلك المقصد القائم في ذات المتكلم، والذي ينشأ في الغالب عن طريق الفعل الكلامي ، انطلاقا من مراعاة أحوال المخاطب، الذي يعلم أنّه سيحقق بعضا من الأبعاد التواصلية الإبلاغية التي تختلف باختلاف السياقات والمقامات، ومن ثم يتيقن مقصود المتكلم لدى المتلقي،وذلك ضمن استرتيجية تخاطبية توقف عندها أهل التداول فيما سميت بالاستراتيجيات التخاطبية([1]).

غير أنّ الداري والمتفحص للسياق الصوفي من الوجهة الخطابية لربّما يتساءل عن مدى صلاحية هذا النوع من التخاطب من الوجهة التداولية؟ والإجابة تكمن في طبيعة المدونة المفاهيمية/ المصطلحية التي يمتاز بها الخطاب الصوفي وفي والتي استطاعت أن تعطي للعلاقة بين الصوفي كمتكلم والصوفي كمتلقي عدة أبعاد أشار إليها أهل التداول لاسيّما ما توقف عنده أبو الاستلزام التخاطبي في الفكر الغربي

[1] – ينظر في هذا الصدد محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 2002، ص ص: 37-40. وانظر أيضا عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ: استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية- ط2، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع. عمان. 2015. 2/85-86.

قرايس(Grice)، الذي حاول أن يقيّد هذا المبدأ التخاطبي في أركان أساسية يعرفها أهل الاختصاص. لكن نحن مع طبيعة هذا المقال سيفرض علينا الإجراء الخارجي له أن نتقيّد ببعض الإجراءات التداولية التي لها علاقة بالتخاطب من منظور الفكر الصوفي ممثلة في نموذج من الخطاب الصوفي لابن عربي وهو الوصايا ، محاولين أن نستشف بعض ملامح التصور التداولي في هذا النوع من الخطابات الذي امتاز به ابن عربي.

العلاقات التخاطبية التداولية في رحاب كتاب الوصايا:

ما دام الخطاب التداولي من أهم خصوصياته أنّه يركز على البعد التواصلي الذي يقوم بها الخطاب ؛ فإنّنا نجد كتاب"الوصايا" لابن عربي قد احتوى على هذا النوع من التواصل وفق ما يقتضيه السياق الصوفي، إضافة إلى ذلك أنّ الخطاب الصوفي هو نمط من الخطاب مثلما يحتوي على جهة المنطوق فأيضا قد احتوى على جهة المكتوب بشكل بارز وملحوظ([1])؛الأمر الذي أهّله أن يحقق وصفا يتماشى مع غالبية الوظائف القائمة في الخطاب التداولي. أضف إلى ذلك احتواء الخطاب الصوفي على العناصر المشتركة التي لها علاقة بالعلاقات التخاطبية؛ فهي علاقة قائمة"... بين طرفي الخطاب، والمعرفة المشتركة والظروف الاجتماعية العامة بما تثيره من الافتراضات المسبقة والقيود التي تؤطر عملية التواصل"([2]).

ولعل أهم ما امتاز به كتاب الوصايا لابن عربي، أنّه عبارة عن مجموعة من النصائح والإرشادات صادرة عن عارف بالله تعالى عن طريق تلكم النفحات الربانية/الصوفية التي تنبثق من عمق باطني روحاني إلى واقع المتلقي الذي له منزلة

[1]- ينظر آمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة. ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر. 2002. ص:6.

[2] - عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية- ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة. بيروت، لبنان، 2004. ص:39.

خاصة من التصوف؛إذ كيف يعقل أن يرسل العارف بالله لغة أو خطابا إلى عامة الناس الذين ليست لهم مدونة مفاهيمية صوفية لها ما يليق بمقامها من حيث المنبت والطريقة والمنهج ومن ثم المقصد؛الأمر الذي جعل من الخطاب الصوفي السّاري على هذه الشاكلة العرفانية أن يأخذ بالمريد "... يطلب الوصول، باعتبار أنّ الطريق الصوفي بأحواله ومقاماته قابل للاكتساب"([1]).

في هذا الإطار بالذات نجد ابن عربي يرسل كلاما عرفانيا يحوي على بعد نصائحي يختلف باختلاف السياقات والمقامات؛ فهو يوصي المريد بوصية إذا ما أراد أن يصل إلى مقام متميز في عالم الوجود الكوني؛ قائلا" اعلم أنّ السبب الموصل إلى نيل ما ذكرناه ، تفرّغ الخاطر والقلب من كل علم من الفكر المطلوب لاقتناء العلوم، ومحو ما كتب ونسيان ما علم، والجلوس مع الله على الصفا وتجريد الباطن من التعلق بغير ذات الحق جلّ جلاله على ما هو عليه من الإطلاق"([2]).بل إنّ ابن عربي يذهب إلى أبعد من ذلك أنّ الإنسان إذا ما فتح الله له بابا من أبواب المعرفة وفق بعدها الكينوني الوجودي الرباني؛ فليعلم أنّه ما فتح له ذلك إلا ليقتحم عالما روحانيا ليس كباقي العوالم الأخرى على الإطلاق، لذلك نجده يصرح بصريح العبارة في هذا الشأن قائلا"ثم إنّه إن فتح لك بابا من أبواب العلم به مما لم يتقدمك فيه ذوق وأتاك بلسان روح قدسيّ فلا تردَّه ولا تقف عنده واشتغل بما كنت عليه"([3]).

والحقيقة مثل هذه الوصايا لا نجد ابن عربي وحده المتفرد فيها وفي مسالكها من حيث الورود والمنهج؛ بل نجد من العارفين بالله تعالى وتقدس من رزقه الله تعالى بسر الوصايا التي خدمت الوجود الإنساني العارف بالله تعالى، من ذلك ما أشار إليه صاحب الحكم العطائية في قوله:"إذا فتح لك وجهة من التعرف؛ فلا تبال معها إن

[1] – الحكيم سعاد: ابن عربي مولد لغة جديدة. ط1، دندرة للطباعة والنشر ، 1991. ص:48.
[2] – ابن عربي: كتاب الوصايا. ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. 2004. ص:505.
[3] – المصدر نفسه. ص:505.

قل عملك؛ فإنّه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك؛ ألم تعلم أنّ التعرف هو مورد عليك،والأعمال أنت مهديها إليه؛ وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك"([1]).

دليل قاطع وساطع في تلكم العلاقة الربانية الإيمانية الروحانية القائمة بين الذات القدسية والذات العارفة الزاهدة، عن طريق مفهوم-التعرّف-؛ هذا المفهوم من باب الوصايا راح يأخذ بعده الوظائفي من جهات متعددة:

- أولا لأنّه فتح من قبل خالق البرية تعالى وتقدس، وهو الفتح الذي ظل وسيظل ما حيي الوجود الكوني الملازم للوجود الإنساني؛ إذ الأشياء تمتاز عن بعضها البعض تبعا لمبدأ هذا الفتح الذي يقدفه الله تعالى في قلب من يشاء من خلقه.
- وثانيا لأنّه نور رباني ليست له حدود وأنى له ذلك، وليس له ضوابط عبدية لا تستطيع أن تنسلخ عن صفة النسبية الملازمة معها؛ بل هو نور يظل يسير وفق ذلكم المطلق الذي حوي الأشياء وليس الأشياء هي التي احتوته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا؛الأمر الذي جعل من هذا النور إذا ما استقر في قلب الذات العارفة تحرك فيه شرط التعرف وفق تلكم الشمولية الاستغراقية التي تستغرق الزمان والمكان من عدة جهات.
- وثالثا أنّ هذا الفتح يحمل بعدا تعالقيا بين الله تعالى وسرّ الفتح، وهو ما سار على سر المطلق، وبين سرّ الفتح وعالم الذات الصوفية أو التصوفية، وهنا يتحرك الفتح الرباني ليحط رحاله على واقع الذات المتصوفة؛ لتعيش وفق شمولية بين ذاتها ونفسها من جهة، وبينها وبين عالم الوجود المطلق، وأخيرا بينها وبين الذوات على اختلاف مبدأ الإدراك والوصول. وكل هذه الصور تتحرك فيها العلاقات التخاطبية على حسب ما تقتضيه علاقة الفتح بالجهة التي تتحرك فيها على حسب مقدار السر القائم في الفتح.

[1] - السكندري: الحكم العطائية. ص:3.

● ورابعا مجاوزة تلكم التصورات البشرية في شأن استغراق الفتح الرباني في ذات الإنسان ليصبح بعدها عبدا عرفانيا لله تعالى وحد الله تعالى وحده وفي سبيله هو وحده. وإن هذا لعمري هو السر الجوهري من الفتح الرباني الذي لا يبالي بمقام الذات من جهة ما تمتاز به من طاعة ومعصية؛ فما اختاره الله تعالى على سبيل الاصطفاء لا تراعى فيه مبدأ النقصان أو التقصير من جانب الذات العارفة؛ لأنّ سرّ التعرف الذي يقدفه الله تعالى في عبده كفيل بجعل هذه الذات تمتاز بحقيقة ربانية إيمانية عرفانية يجعلها تحقق بعدا تواصلية مع أيّ علاقة تخاطبية تعيش فيها في عالم الوجود.

● وخامسا مثل هذا التعرف الذي تريده حكمة الباري تعالى وتقدس يعكس في طياته بعدا علائقيا بين الرب والعبد؛ وهو تعالق لا يقف حده عند هذا الأمر فحسب، بل يمتد ليصل إلى عالم الخلق والوجود.ولعل مثل هذا النوع من التعرف الذي يأخذ بعده الصوفي العرفاني، لم يقتصر فقط فيما غلب عليه السياق الصوفي العرفاني، بل نجده يمتد ليصل إلى بعض الجهات من الأسيقة المعرفية التي يغلب عليها الطابع الفلسفي المتزن، من ذلك ما تجسدت معالمه في شخصية الفخر الدين الرازي في تفسيره حين كان يفسر قوله تعالى{وإذا سألك عبادي عني فإني قريب}([1])؛ إذ نجد ملامح ما أشار إليها السكندري وابن عربي في مجال الوصايا تأخذ بعدا شاملا يتماشى مع تلكم النفحات الربانية من وجهة فلسفية عقلية تعطي للعلاقة التخاطبية بعدها التواصلي الإبلاغي من نوع خاص. جاء في تفسير الرازي لقوله تعالى سالف الذكر ما بيانه"...في الصيغة الافتراضية (وإذا) تتأسس دائرة الدعاء والاستجابة، الدعاء كنداء وسؤال هو في ذاته استجابة لأنه إقرار بالوجود الشخصي للإله، والسؤال باعتباره دعاء هو طلب إلهي، كما أن الاستجابة الإلهية بما هي اقتراب مبنية

[1] – سورة البقرة الآية 186.

على طلب شخصي للعبد، "فعبارة (إني قريب) تدل على أن الرب للعبد (..)ولهذا لاحظ الرازي أن الله لم يقل: عبدي قريب مني، ولكن قال: أنا، (إني قريب منه)"([1]).

● وسادسا لا يمكن أن يقاس الفتح الرباني العرفاني بما تقدمه الذات العارفة؛ لأنّ هذا ينافي ما تنبغي عليه العلاقة التخاطبية بين المطلق–الله تعالى– والمقيّد–الذات العارفة–؛الشيء الذي يجعل من المقيّد دائما في سيرورة من الإتباع والاقتداء والاقتفاء، وهنا يتحرك مسار العلاقات التخاطبية من التقييد نحو الإطلاق، مما يكسب الذات العارفة فيما بعد شيئا من لوازم الإطلاق؛ فتجسّد حينها هذه الذات في تلازما مع الوجود المطلق من جهة والوجود الإنساني من جهة أخرى عدة علاقات تخاطبية تختلف باختلاف السياقات والمقامات. لذا قال مولانا عليه الرضوان"وأين ما تهديه إليه، مما هو مورده عليك" فهي العروة الوثقى للعلاقة التخاطبية وهي تسير وفق مستلزمات حوارية إيمانية ربانية تجاوزت بشكل مطلق ما قام عليه الاستلزام الحواري الذي دعت إليه النظرية التداولية عبر تصورات قرايس(**Grice**)ومن نحا قبله أو بعده من المنظّرين.إنّه المطلق القائم في الخطاب الصوفي الذي يأخذ مشكاته من ذلكم القبس النوراني فيجعل العلاقة التخاطبية تحدوها الشمولية من كل مكان؛ شمولية في التصور والمنهج والطريقة والإجراء والهدف والمقصد.

هي بعض التخريجات لما سبق ذكره فيما جاءت به الوصايا لابن عربي وهي تحدو نحو منطق الشمولية فيما تعلق بتلكم النصائح والإرشادات التي غدا ابن عربي يقدمها في غالبية السياقات وهو يحاور تلكم الحوارات هي مباشرة حينا وغير مباشرة حينا آخر. مباشرة لأنّه كان يعيش في زمن وواقع تحكمه مجموعة من المسلمات والأعراف

[1] – عمارة الناصر: اللغة والتأويل لدى الفخر الدين الرازي؛ قراءة هيرمنيوطيقا في تفسيره"مفاتيح الغيب" رسالة مخطوطة الماجستير. تحت إشراف: الزاوي الحسي. جامعة وهران. 2002–2003. ص:153.

والتقاليد؛ فهو مضطر أن يوجه خطابه على سبيل الوصايا وفق ما يفهمه ويدركه ذلكم المتلقي الصوفي آنذاك؛ وهو في الوقت آنه يتحاور غير مباشرة مع المتلقي الصوفي المرتقب في عالم الوجود اللاحق؛ فهي علاقات تخاطبية غير متوقفة؛ لأنّها ملازمة للوجود الإنساني قاطبة، والفضل إنّما لذلكم القبس الرباني مبثوث في عالم الذات المتصوفة.

لنترك هذا النوع من التخريج الذي دائما وغالبا يستدعي مطلقا في التصور والإجراء والمقصد، لنقترب من واقع الاستعمال في ظل ما أملته خطابات الوصايا من كتاب ابن عربي للنظر كم احتوته من إجراءات تداولية تصب في عمق العلاقات التخاطبية من بابها التواصلي الإبلاغي، ثم بعدها نعقب وفق ما يتماشى مع عتبة عنوان البحث.

1-الخطاب الإشاري التداولي في كتاب الوصايا:

العائد إلى ما أشار إليه التداوليون الغربيون يجد أنّ من بين الأفعال الكلامية التي تأخذ بعدا تداوليا يختلف باختلاف السياقات الاستعمالية، ما سمي بالإشاريات، وهي أفعال يستخدمها المتكلم قصد إيصال بعض الحقائق إلى واقع المتلقي([1]). غير أنّ هذه الإشاريات إذا ما أردنا أن نتعامل معها وفق شمولية استغراقية فإنّها لا محالة سيتنوع وجودها الكينوني والمعرفي تبعا للسياق المعرفي الذي يحقق لها هذه الميزة؛ فكان

[1] -الإشاري مصطلح استعمله بار هيليل، وهو يقابل الوحدة الإشارية عند بيرس، وهو مصطلح يطلق على الصيغ اللغوية التي تستعمل للقيام بالإشارة بوساطة اللغة، وتسمى الإشاريات. وتشمل: الضمائر بأنواعها وأسماء الإشارة وظروف الزمان والمكان والصيغ الانفعالية (النداء والتعجب) وأسماء القرابة،وهي علامات لغوية لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب التداولي،وعليه ظلت غالبية الصيغ الإشارية تلتقي على سبيل الاستعمال التداولي الوظيفي في مفهوم التعيين وتوجيه الانتباه إلى موضوعها بالإشارة إليه، ولذلك سميت بالمعيِّنات، وهي جمع لكلمة مفردة هي (المعيِّن). ينظر كاظم جاسم منصور العزاوي: التعبير الإشاري في الخصيب. مقاربة تداولية. مجلة جامعة بابل العلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد 1، 2016، ص: 72 وما بعدها

حينها الخطاب الصوفي من أهم الخطابات التداولية الذي تعامل مع الفعل الكلامي الإشاري وفق تلكم الأبعاد الثلاثية: واقع اللغة في حد ذاتها(وهنا يتحرك الخطاب الإشاري وفق سياق تداولي شامل ومطلق)،واقع الذات المتصوفة(هي الحقيقة الباطنة الملازمة لعالم المعرفة من جهة ، وعالم اللغة من جهة أخرى)، وأخيرا عالم الوجود المطلق الذي يتحرك فيه كل من اللغة والذات المتصوفة المتكلمة؛الشيء الذي لاحظناه جليا في خطابات ابن عربي عن طريق استعماله للأدوات الإشارية التي تحمل طابعا ذاتويا يتماشى مع شرط الكينونة الوجودية التي يتمتع بها كل من المتكلم واللغة والمخاطب الصوفي، وهنا بالذات تتحرك معالم التصور التداولي عبر هذا التصور الصوفي لتحقق في النهاية بعدا تواصليا إبلاغيا متميزا عما أشارت إليه الحقول المعرفية الأخرى.

يقول ابن عربي في سياق الفعل الإشاري التداولي ما بيانه"... الذي أوصيك به أيّها الأخر الإلهي"([1])، بل "فقد دللتك على ما فيه سعادتك في الدّارين"([2]). لعل سائلا يسأل أين يكمن الشاهد التداولي الملازم للفعل الإشاري من قبل هذين النصين؟

لعل ورود ضمير الـ(**الأنت**) على لسان حال ابن عربي في مخاطبته للمتلقي يعكس بعدا إشاريا يعطي للفعل التداولي الكلامي بعدا تواصليا إبلاغيا متميزا، يرقى بواقع المتلقي إلى درجة يحس عن طريقها أنّ له مكانة خاصة لدى المتكلم وهو ابن عربي([3])؛ ذلك أنّ استخدام ابن عربي لكلمة(**الأخ الإلهي**) في مناسبة الخطاب تجعل المتلقي يشعر أنّ وجوده من جهة واقع الخطاب له منبعان ؛ أحدهما داخل والآخر

[1] – ابن عربي: كتاب الوصايا. المصدر السابق. ص:503.
[2] – المصدر نفسه. ص:506.
[3] – ينظر بلخير عمر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية. ط1، منشورات الاختلاف، 2003. ص:72.

خارجي. أما الداخلي فلأنّ استخدام ابن عربي لكلمة(الأخ الإلهي) تجعل المتلقي يركز اهتماه من جهة ما يتماشى مع سياق الروح لا من جهة الذات المخاطبة،في حين يكون المنبع الخارجي منصبا أساسا في خصوصية اختيار كلمة(الأخ الإلهي) بما تحقق من إشارة تخاطبية تعطي للفعل التداولي القائم في كلمة(الأخ الإلهي) بعده التواصلي الإبلاغي المراد من وراء قصدية المتكلم تجاه المتلقي؛ فهي إشارة تخاطب الروح والنفس والقلب والعقل لأن تتحلى بما يحقق هذا النوع من الأخوة الإلهية التي هي ليست كباقي الأخوة المرسلة على ألسنة كثير ممن يحتلون مقام ذاتية المتكلم في تلازمه التخاطبي مع واقع المتلقين.

هنا في هذا المقام بالذات تكتسب إشارة الفعل التخاطبي القائم بين ابن عربي والمتلقي الصوفي بعدا تواصليا إبلاغيا يتماشى : أولا مع طبيعة السياق الصوفي الذي همّه الوحيد ذلكم الجلاء والتجلي والتحلي بما هو قائم في عالم الحق، وثانيا مع طبيعة منزلة الخطاب القائم في ذات المتكلم بحكم أنّه له الزمام والتحكم؛ فالقصد قائم في ذاته فهو أعلم به من غيره، وثالثا مع تلكم العملية التخاطبية القائمة في العلاقة بين ابن عربي والمتلقي الصوفي مما يحقق هذا النوع من العلاقة التخاطبية بعدا تداوليا إشاريا في ظل شمولية كلمة (الأخ الإلهي).

لننتقل الآن إلى بعض الصور التي احتواه كتاب الوصايا من جهة الأفعال الكلامية التي أشار إليها كل من أوستن(Austin) وتلميذه سيرل(Searle) لننظر الميزة الأساسية التي احتواها الفعل الكلامي الصوفي الذي لربّما يتجاوز حدود ما قيدته نظرية الأفعال الكلامية من ضوابط.

الأفعال الكلامية من الوجهة الصوفية:

قال ابن عربي"وقد علمه القلم الذي هو العقل الأول"([1])، وقال أيضا" فقد دللتك على ما فيه سعادتك في الدارين، وما تؤول إليه نفوس العارفين في النشأتين"([2]). ويواصل في تبيان حركية الفعل الخبر الملازم للحقيقة الصوفية من بابها التداولي الصوفي قائلا: "فإنّ الله أوسع من أن يقيّده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل، وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من الأسلوب، ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكنّ نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان"([3]).

الشاهد في هذه الأمثلة وغيرها كثير فيما نطق به ابن عربي على جهة ذلكم التعلق القائم بين الذات المقدسة والذات العابدة،هو استعماله لقرائن التوكيد من مثل: قد، وإن، لكن وغيرها، والتي جاءت لتبين مدى تأكيد الفعل الخبري على تلكم العلاقة التخاطبية التي أقامها ابن عربي بين المطلق–الذات القدسية– والذات العارفة بالله تعالى؛ الأمر الذي جعل المشهد الصوفي الروحاني القائم في العلاقة اللامتناهية بين العقل والإيمان، يعكي ضمنيا فعلا تداوليا خبريا عن مدى التزام الذات العارفة بهذا النوع من العالم الروحاني الذي يحدوه الإطلاق من كل مكان. ولعمري إنّ ابن عربي على الرغم من صدقه وإخلاصه في تبيان للمتلقي الصوفي أدبيات الفعل الإخباري القائم بين حدود العقل وإطلاقية الإيمان،إلا أنّه استطاع أن يخلف لنا بعدا تداوليا يتماشى مع مفهوم ما أطلق عليه بالأسلوب الخبري ليس انطلاقا من تلكم الضوابط المعروفة لدى الأسلوبيين النحويين أو البلاغيين ، بل أبعد من ذلك يريد شمولية استغراقية إطلاقية في الفعل الخبري والإخباري الذي تطفيه العلاقة التخاطبية

[1] – ابن عربي: كتاب الوصايا. المصدر السابق. ص:505.
[2] – المصدر نفسه. ص:506.
[3] – المصدر نفسه. ص:503.

بين ابن عربي وواقع المتلقي في رحاب عالم الحق الرباني عن طريق تلكم النفحات الربانية التي تجعل الصوفي يحقق تلازما تعالقيا من نوع خاص مع مفهوم الخبر على حسب ما تقتضيه طبيعة المدونة الصوفية.

هو الأسلوب الخبري الذي تعامل معه ابن عربي ليس انطلاقا مما حدّده أهل الاختصاص؛كونه ذلكم"... الخطاب التواصلي المكتمل إفاديا الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية"([1])، وإنّما زيادة على ذلك بما يحمله الخطاب الصوفي من خبر ليس في ذاته فحسب، بل في غيره وهو يتوزع على جهتين اثنتين: جهة قائمة في ذات الخطاب بما يحقق تلازما بين ذات المتكلم الواقع الخارجي للذي يتلقاه، وهنا يلتقي الأسلوب الخبر التداولي مع ما أشار إليه صاحب النص ومن كان على هذه الشاكلة، وجهة تصل إلى العالم الخارجي ولكنّها سرعان ما تعود بالخبر إلى ذلكم المنبع الروحاني الباطني القائم في ذاتية المتلقي الصوفي، وهنا يلعب الخطاب الصوفي في كثير من الأسيقة الموجودة في كتاب الوصايا بعدا تداوليا يتوزع داخليا أكثر من توزعه خارجيا.

إنّ الخبر من منظور الخطاب الصوفي هو ما لازم الحقيقة المطلقة، فهو من ثمة ملازم للوجود من جهتين اثنتين: جهة قائمة في الوجود الكوني ، وجهة في الذات المتصوفة في تلازمها مع هذا الوجود، لتتحرك فيما بعد الكينونة التي هي مطلب أساسي وجوهري في رحاب الذات العارفة، وهنا بالضبط يكتسب الأسلوب الخبري من منظور الخطاب الصوفي التداولي بعدا تواصليا إبلاغيا يتطابق مع العالم الداخلي للذات ومع العالم الخارجي الموجود في الوجود المطلق. مثل هذه الحقائق راح ابن عربي يجسّد معالمها في ظل استعماله للأساليب الخبرية التي تحمل تأكيدا قويا ومتنوعا على

[1] – مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان. 2005. ص:82.

حسب تنوع العلاقة التخاطبية القائمة بين المطلق(الذات المقدسة)وواقع المتلقين من المتصوفة.

ولكي لا نجعل مسار التعامل مع المادة المعرفية التصوفية في ضوء الاتجاه التداولي يسير وفق نسقه المطلق؛ فيظل حينها المتلقي لهذا النوع من الخطاب الصوفي في استغراقية لا حدود لها، لا ضير في أن نشير إلى نصين أو ثلاثة نصوص التي تأخذ شيئا من لوازم أسلوب الخبر وهي تعكس بعدا تداوليا من منظور السياق الصوفي.

يقول ابن عربي "وقد علمه القلم الذي هو العقل الأول"([1])،و"قد دللتك على ما فيه سعادتك في الدارين، وما تؤول إليه نفوس العارفين في النشأتين"([2])،بل أبعد من ذلك أنّ الله تعالى وتقدس"... أوسع من أن يقيّده عقل عن إيمان أو إيمان عن عقل، وإن كان نور الإيمان يشهد العقل من حيث ما أعطاه فكره بصحة ما أعطاه من الأسلوب، ولا يشهد نور العقل من حيث فكره بصحة ما أعطاه نور الإيمان والكشف، لكنّ نور العقل به يكون القبول الخارج عن الفكر يشهد بصحة ما أعطاه الكشف والإيمان"([3]).

إنّ المتأمل في هذه الإرسالات من لدن ذاتية ابن عربي في تلازمها التعالقي مع واقع المتلقي الصوفي، يدرك أنّه قد احتوت على أبعاد تداولية لم تخرج عن شمولية الأسلوب الخبري بإجراءاته المتفق عليها في السياق النحوي أو البلاغي، ولكن وفق تصور صوفي لا يستطيع أن يحيد عن تلكم الشمولية الاستغراقية التي هي في تلازم لا محدود ولا مقيد بالذات المتصوفة.

من أهم ما يميز هذه النصوص على جهة ما يمليه الخطاب التداولي هو ورود أدوات التأكيد على لسان حال ابن عربي: إن، قد، فقد؛ حيث جعلت الخطاب

[1] – ابن عربي. كتاب الوصايا. المصدر السابق. ص: 505
[2] – المصدر نفسه. ص: 506
[3] – نفسه. ص:503.

يتجه نحو شمولية استغراقية يحدوها التأكيد على منزلة التصور الصوفي من بابه الروحاني الذي يعطي للعقل منزلته الخاصة في تلازمه مع عالم البرزخ ممثلا في اللوح المحفوظ الذي غالبا ما يعبّر عنه عن طريق لوازم الاقتضاء بالقلم. لكن لسائل أن يسأل: ما السر القائم في العلاقة التخاطبية بين ما أراده ابن عربي وما هو ضروري إدراكه من قبل المتلقي الصوفي؟ لعل ابن عربي على حسب ما يقتضيه قانون التخاطب أراد أن يؤكد للمتقي الصوفي أنّ الحقيقة التي ظل ابن عربي منذ زمن بعيد يعيشها ويحاول أن يعيشها الوجود الإنساني هو تأكيده على ذلكم التلازم القائم بين ما هو قائم في القلم(علاقة العقل بما هو موجود في اللوح المحفوظ) وما هو سار على سبيل تحقيق تلكم السعادة الربانية الإيمانية التي لا يمكن أن تنفك عماسمّوا بالعارفين بالله تعالى وتقدس.

هنا في هذا المقام نجد خطاب ابن عربي يتحرك في ظل علاقة تخاطبية لربّما تجاوزت حدود ما أشار إليه رواد الاستلزام التخاطبي وعلى رأسهم لاكووف(**Lakoffe**)،حين ربط هذا التخاطب القائم بين المرسل والمتلقي بثلاث قواعد وهي:قاعدة التعفف والتي تنص: لا تفرض نفسك على المخاطب، أي لتظل ملتزما متحفظا ولا تتطفل حتى لا تتجاوز حدود الآخرين. وقاعدة التخيير، والتي تنص: لتجعل من تخاطبه يتخذ الحكم والقرار بنفسه على نية الاستقلالية، وقاعدة التودد والتي تنص: لتظهر الود للمخاطب حتى يتحقق القرب منه([1])؛ ذلك أنّ هذا النوع من القواعد لربّما تطغى عليه الأسيقة النفعية التي تختلف باختلاف جهات الخطاب،وهو ما لم يقر به ابن عربي في اعتماده على أدب الخطاب، منطلقا من واقع معرفي يختلف جملة وتفصيلا عما هو في الواقع الفكري الغربي؛ في الوقت- يا سبحان الله- الذي وجدنا فيه خطاب ابن عربي يحتوي على هذه القواعد الثلاث المشار إليها

[1] - ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجية الخطاب؛ مقاربة لغوية تداولية. المرجع السابق. ص:100

من قبل لاكووف، ولكن هنا تتخذ لنفسها مسارا وجوديا كونيا يعطي للذات المتكلمة الصوفية حقها من حيث امتلاك المعرفة(ابن عربي) وللذات المتلقية لهذا الخطاب الوجودي الكوني حقها، وللحق البرزخي الذي يشترك فيه كل من الباث والمتلقي؛ لأنّه هو الجامع للحقيقتين الذاتيين بحكم أنّ كلا منهما مطالب في تحقيق الرضا الرباني من منظور الحق الذي أوجبه الله تعالى لنفسه أولا، وللوجود الإنساني ثانيا، وهنا تتحرك العلاقات التخاطبية في رحاب هذا النوع من الخطاب الصوفي عن طريق فعل الوصايا التي راح ابن عربي يقيم في ظلها ما كان يؤمن به تجاه عالم الحقيقة المطلقة محاولا أن يؤكد معالم هذه الحقيقة في ذاتية الصوفي المتلقي على حسب مبدأ الإدراك والشعور والوعي والفهم والتخريج.

وخلاصة القول ما يمكن قوله في شأن منزلة العلاقات التخاطبية من منظور التصور الصوفي ، هو أنّ غالبية ما نجده مبثوثا في كتب المتصوفة يعكس هذه الحقيقة المتعلقة بمبدأ التخاطب، ولكن وفق شمولية استغراقية تجاوزت إلى حد كبير تلكم المسلمات المفاهيمية والمنهجية والإجرائية التي توقف عندها التداوليون في تعاملهم مع الاستلزامات التخاطبية بصورها ومجالاتها؛ الأمر الذي يجعلنا بحق ندرك أنّ هذا التراث الصوفي في أمس الحاجة أن يدرس من هذه الجهات وجهات أخرى مما هو موجود في النظريات التداولية من مثل: مفهوم الفعل الكلامي من منظور التصور الصوفي وكذا الاقتضاء والملاءمة في الكلام والخطاب وغيرها مما نحن في أمس الحاجة إليه أن تهتم به أقلام المفكرين اللسانيين واللغويين حتى ينفضوا الغبار على هذا الرصيد الصوفي الذي لا يستهان به؛ فتتعين تلكم الشرعية التي نؤمن بها في تراثنا بعامة والصوفي على وجه أخص.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**

-ابن عربي: كتاب الوصايا. ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب. 2004.

-ابن منظور: لسان العرب. دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1965. مادة خطب.

-آمنة بلعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة. ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر. 2002.

-بلخير عمر: تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية. ط1، منشورات الاختلاف، 2003.

-جابر عصفور: آفاق العصر، ط1، دار الهدى للثقافة والنشر، سوريا، دمشق، 1997

-جوليا كريستيفا: علم النص، ترجمة: فريد الزاهي. دار توبقال. المغرب، 1997.

-جيرار جينيت: خطاب الحكاية، ترجمة: محمد معتصم وآخرين. ط3، منشورات الاختلاف، 2003م.

-حسين واد ،في مناهج الدراسة الأدبية، دار سراس للنشر، تونس 1985

-الحكيم سعاد: ابن عربي مولد لغة جديدة. ط1، دندرة للطباعة والنشر ، 1991.

-خليفة بوجادي: محاضرات في علم الدلالة مع نصوص وتطبيقات. ط1، بيت الحكمة. 2009.

-دومينيدمانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب. ترجمة: محمد يحياتن. ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005،

-رشيد بنحدو: النص الأدبي من الإنتاج إلى التلقي. أطروحة مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس، تحت إشراف حسن المنيعي، 1991

-رولان بارث : درس في السيميولوجيا. ترجمة: عبد السلام بن عبد العالي. ط2، دار توبقال، 1986م.

-سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي. ط3، المركز الثقافي العربي، المغرب، الدار البيضاء، 1997

-عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ: استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية- ط2، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع. عمان. 2015.

-عمارة الناصر: اللغة والتأويل لدى الفخر الدين الرازي؛ قراءة هيرمنيوطيقا في تفسيره"مفاتيح الغيب" رسالة مخطوطة الماجستير. تحت إشراف: الزاوي الحسي. جامعة وهران. 2002-2003.

-الفيرزو أبادي: القاموس المحيط. مادة خطب.

-كاظم جاسم منصور العزاوي: التعبير الإشاري في الخصيب. مقاربة تداولية. مجلة جامعة بابل العلوم الإنسانية، المجلد 24، العدد 1، 2016

-محمد الباردي: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة. مركز النشر الجامعي، تونس، 2004.

-محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 2002

-مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب. ط1، دار الطليعة، بيروت، لبنان. 2005.

-ميخائيل باختين: الخطاب الروائي. ترجمة: محمد برادة. ط1، دار الأمان، 1984.